الفصل السادس عشر

نصيبين[١]

أسرع وزير الحربية إلى مقر القيادة العليا لجيش إبراهيم . وكان الطريق أمامه طويلاً ، ولا يستطيع هو السير فيه مسرعا كما يسير الرسول . ولذلك سبقه مبعوث خاص يحمل إلى إبراهيم أوامر أبيه . ولم نستطع الاطلاع على نص هذه الأوامر ، ولكن فى مقدورنا أن نتكهن بمعناها لأن إبراهيم قد خول منذ يونيه سنة ١٨٣٩ الحق المطلق فى أن يفعل كل ما يراه صالحاً ، فيبدأ الحرب أو يحافظ على السلم حسبما تمليه عليه الظروف[٢] .

ولما ترك محمد على لإبراهيم أن يتصرف فى الأمر بحكمته وحسن تدبيره ، كان يعرف أنه لن يهاجم العدو إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارا ، على الرغم من أن تركيا ومصر كانتا فى حالة حرب فعلية فى البر والبحر منذ شهر مارس من عام ١٨٣٩ ، كما أنبأ القنصل الإنجليزى العام بالقاهرة حكومته فى ٢٦ من ذلك الشهر[٣] . ولطالما استفز الأتراك إبراهيم بموقفهم العدائى ؛ ولولا قدرته على كبح جماح نفسه لتكشف ستار السلم عن حقيقة الحرب العلنية . وقد كتب فى ذلك القنصل اليونانى العام فى الإسكندرية إلى وزارة خارجيته بتاريخ ١٨ يونية يقول :

« تدل الأنباء الواردة من المنطقة التى يعسكر فيها الجيشان فى الوقت الحاضر

(١) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيره چك والإسكندرونه وهى غير نصيبين التى بالجزيرة ويسميها الإفرنج والترك نزيب . (المعرب)

(٢) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٦٣ .

(٣) المصدر عينه ص ٥٨ .

على أن جيوش السلطان تواصل الزحف ، وتشجع أهل البلاد على الثورة بتقديم الأسلحة وبذل الوعود لهم . وقد تقدم (سليمان باشا والى مرعش) فى جيش مكون من نحو ثمانمائة فارس ، حتى بلغ عينتاب واستولى على المدينة . وإن كانت قلعتها لا تزال فى أيدى المصريين . ويقال إن حافظاً باشا القائد العام للجيوش التركية كان مع هذه القوة ، ولكنه تخلف عنها قبل أن تصل إلى عينتاب . ورأى جنود السلطان سكوت الجيش المصرى وامتناعه عن القتال إطاعة للأوامر الصادرة من الوالى إلى إبراهيم باشا ، بعد أن هددته الدول الأوربية وأنذرته أن لا يكون البادئ بفتح باب العدوان ، فاغتنموا هذه الفرصة السانحة وتوغلوا فى البلاد من غير أن يلاقوا مقاومة ، اللهم إلا مناوشة بين الفرسان السالفى الذكر وكتيبة صغيرة من البدو »[1] .

وقد أفصح هذا القنصل العام نفسه فى رسالة سابقة بعث بها إلى حكومته عن حقيقة تهديد الدول الأوربية . وقبل أن ننقل إلى القارئ شيئاً من هذه الرسالة ، نقول إن ميخائيل توسزا Michael Tossizza الذى بعث بهذه المعلومات إلى أثينا ، لم يكن من رجال الدبلوماسية الرسميين ، ولا من رجال البحرية ، بل كان تاجرا استوطن الإسكندرية قبل أن تستقل بلاد اليونان ، وكسب صداقة محمد على ، واحتفظ بهذه الصداقة . فلما أنشأت بلاد اليونان أول قنصلياتها فى القطر المصرى فى عام ١٨٣٣ ، عهدت بأمور القنصلية إليه . ولم يكن يرسل فى أول الأمر تقارير منتظمة إلى وزارة خارجيته ، كما أنه لم يبدأ الاشتغال بالمسائل السياسية إلا فى سنة ١٨٣٨[2] . ولم يكتسب قط فى حياته ذلك الأسلوب

(١) المصدر عينه ص ٦٣ .

(٢) المصدر عينه ص ٣ من المقدمة .

الخاص الذى تكتب به المراسيم والوثائق السياسية ، بل كانت معانيه على الدوام واضحة كل الوضوح . ويمتاز ما كتبه توسزا بميزة أخرى غاية فى الأهمية ، وهى ناشئة من الصداقة الوثيقة التى كانت بينه وبين محمد على . وقد كتب هذا القنصل إلى وزارة خارجيته فى ٢٣ يوليه سنة ١٨٣٨ يقول :

« لقد أبلغ المستر كامبل وكيل إنجلترا السياسى الوالى بصفة رسمية أن بريطانيا العظمى تعارض أشد المعارضة فيما يطلبه من الاستقلال ، وتصر على أن يبقى كما هو ؛ وإلا فإن الدول الأربع إنجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا ستعمل مجتمعة لمنعه من نيل استقلاله ، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة . وهذه الدول متفقة على ذلك ، وقد قررت أن تزيد قوة الأسطولين البريطانى والفرنسى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن ترسل الجنود النمساوية إلى بلاد الشام إذا استلزم الموقف ذلك . ويلوح أن سمو الوالى سيجيب بأنه إذا عجز عن نيل رغباته بالرضا والمسالمة ، فستلجئه الضرورة إلى أن يعمل لنيلها بوسائل أخرى ؛ ومهما كانت العاقبة فسيكون من أكبر دواعى الشرف له أن تهزمه الدول الأربع الكبرى »[1] .

وكتب توسزا رسالة أخرى فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٨ يضم فيها بروسيا إلى جماعة الدول المتفقة . ولهذا الأمر أهميته ، لأننا عرفنا من قبل أن هلمث فون ملتكه كان وقتئذ مع الجيش العثمانى الذى كان يعمل بكل ما فى وسعه ليستثير غيظ إبراهيم . وليس يخفى علينا أن ملتكه كان فى ذلك الوقت رجلاً لا خطر له ، ولا يكاد يعرفه أحد ؛ ولكن انضمام النمسا والروسيا وبروسيا كان مقدمة لحلف القياصرة الثلاثة الذى تم فيما بعد ، ومضاعفاً للخطر الذى

(١) المصدر عينه ص ٤٠ .

كان يتعرض له جيش إبراهيم . وقد أبلغ قناصل هذه الدول الثلاث محمداً عليًا أن دولهم لا تسمح بأن يطرأ على العلاقة القائمة بينه و بين الباب العالى تغيير ما ، وأنه إذا أقدم على عمل أيا كان نوعه فستنضم هذه الدول إلى تركيا لقتاله والتغلب عليه ؛ فأجابهم الباشا عن ذلك بقوله :

« إننى لا أرغب فى الحرب ، ولن أقدم على عمل عدائى ، ولكننى راغب فى الاستقلال ، ولن أتخلى عن هذه الغاية »[1] .

على أن هذا التحذير كان له أثره فى نفس محمد على ؛ ورأى أن خير وسيلة لتجنب هذه الأحاديث البغيضة المنذرة بأسوإ العواقب ، أن يرحل إلى الجنوب . وكانت الإشاعات متواترة بأن مناجم من الذهب صالحة للاستغلال قد كشفت فى السودان . ورأى الباشا من مصلحته أن يتحقق من هذه الأنباء الهامة بنفسه ، حتى إذا ما اضطر إبراهيم إلى الزحف على الأتراك ، حلت بهذا الكشف مشكلة من أهم المشاكل . وزيادة على ذلك فإن غيابه يهيئ الظروف للمسألة التركية كلها أن تستقر على قرار ثابت مكين . لكن هذا الغياب المؤقت لم يكن ليفت فى عضد الزمرة الدبلوماسية المتحدة ، التى ظلت تعارض محمداً عليًا بعد رجوعه فى ١٥ مارس سنة ١٨٣٩ .

ولا شك فى أن إبراهيم كان يعرف كل هذه الحقائق و يعرف أيضاً كيف يتعط بعبرها ؛ لأن أباه كان دائم الاتصال به لا يقطع عنه أخباره ؛ وكانت معرفته بها وتقديره خطر الموقف الذى كان يواجهه سبباً فى أنه لم يحرك ساكناً حينما استثار الأتراك غيظه ؛ وذلك لأنه أيقن أن الأتراك يلقون معونة أوربا السياسية ؛ وعرف الباب العالى ذلك فوقف من المصريين هذا الموقف المغضب . وكان

(١) المصدر عينه ص ٤٤ .

فون ملتكه وفون ملباخ Von Mulbach وغيرهم من الضباط البروسيين لا يفتأون يحرضون قواد الترك العسكريين ، ويستعينون بما طبع عليه الألمان من اعتداد بالنفس ومغالاة فى الاطمئنان إلى مقدرتهم ، فيغرون حافظاً باشا بالاستمرار على مناوأة إبراهيم .

وصادف تحريض الضباط البروسيين هوى فى نفس القائد التركى العام ، فلم يشك قط فى الظفر بأعدائه ، لأن له جيشاً جراراً ، وإدارة للمخابرات دقيقة النظام ، وهيئة طيبة من الضباط ، نواتها مساعدوه الألمان .

وشجعه على الاعتداد بنفسه أن إبراهيم لم يقابل هجومه فى ٢٣ إبريل بهجوم مثله . ولما سقطت عينتاب فى يده زاد اطمئنانه ، ولم يساوره قلق ما حتى جيء إليه بأحد الأسرى الذين وقعوا فى يد الأتراك عند استيلائهم على قرية تل باشر . وهذا الأسير هو فرجانى شيخ عرب الهنادى . وكان رجلا سواه الله وعدله ووهبه من الكبرياء بقدر ما وهبه من قوة الجسم . وأخذ القائد العام يسأل أسيره ، لعله يعرف منه ما يفيده فى موقفه . لكن الرجل كان عنيداً لا يلين فأجابه بقوله : « عن أى شيء تسألنى ؟ دونك رأسى فليس ينجيه منك لسانى ، بل ربما أوقعنى فى الهلاك ، وكان منطقى سبباً فى إراقة دمى » . فأجابه حافظ بقوله : « لن أمس شعرة من لحيتك إذا صدقتنى القول » . فقال له الأسير : « أقسم بالقرآن أنى سأبرح هذا المكان حيا سليما من الأذى أخبرك بما تريد » .

فلما أقسم ضحك فرجانى ملء شدقيه وقال :

« أتريد أن أخبرك بالحق وأطلعك على رأيى فى معسكرك ومعسكر إبراهيم ؟ أتريد أن تعرف ما سيقع فى المستقبل ؟ ألا هل يستطيع أحد أن يتنبأ بما فى عالم الغيب ؟ لكنك إذا أصررت على معرفة الحقيقة فإنى مبلغك إياها . إن معسكر

إبراهيم معسكر جنود ، أما معسكركم فمعسكر حجاج » .

فقال له القائد التركى غاضبا : « وماذا تقصد بهذا القول ؟ » فرد عليه بقوله : « رأيت فى معسكر إبراهيم أكداساً من الأسلحة و إلى جوارها كتائب من الجند المشاة مدججين بالسلاح ؛ ورأيت المدافع و إلى جانبها رجال المدفعية ؛ ورأيت الاصطبلات و بقربها الفرسان ؛ ورأيت كل إنسان فى موضعه متأهبا لأداء واجبه ؛ ولم أر شيئاً من ذلك فى معسكركم ، بل رأيت فيه يهودا وتجارا وأئمة ؛ رأيت فيه رجالاً يقرضون المال ، ورجالاً يبيعون وآخرين يصلون ، ولذلك قلت إن معسكركم أشبه شىء بمعسكر الحجاج . وتسألنى لمن سيكون النصر ؟ فأقول إن هذا ما لا أعرفه ، لأن علمه عند الله ، وستعلمن نبأه بعد حين »[1] .

إن للأتراك أغلاطاً ولكنهم قوم كرام . ومع أن حافظا قد تألم وكاد يصعق مما قاله العربى الصريح ، فقد فك أسره وخلى سبيله ، وقبل أن يعود إليه صوابه جاءه رسول ومعه خطاب من إبراهيم ؛ ولم يكن هذا الرسول يحمل راية الهدنة لأن الحرب لم تكن أعلنت رسميا بين الدولتين . وكان تاريخ الخطاب ٨ يونيه سنة ١٨٣٩ وقد جاء فيه :

« إن التعليمات التى أرسلتها الدول العظمى إلى قناصلها المقيمين فى الإسكندرية قد أقنعتنى بأنهن غير راضيات عن الحرب ؛ و إنى لأعرف أيضاً أن سمو مولاى المعظم غير راض عنها ، ولكن على الرغم من هذا :

(١) فإن سليمان باشا المرعشلى أرسل فصيلة من جنوده هاجمت جيوشنا فى بولاق .

(٢) وأرسلتم فرقة إلى بلياس[2] لتحريض أهلها على الانتقاض علينا .

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ١٨٨ .

(٢) ميناء صغير فى خليج الإسكندرونة . (المعرب)

(٣) و بعثتم بالحاج عمر أوغلو إلى كرد داغ[1] للغرض نفسه .

(٤) وغزوتم أرضنا وهاجمتم عرب الهنادى التابعين لنا .

(٥) ووزعتم الأسلحة على أهل ولاية عينتاب ، ودخل سليمان باشا المرعشلى هذه المدينة ولا يزال باقيا فيها إلى الآن . و بالأمس هاجمت قوة من الفرسان تحت قيادة سعادتكم صفوفنا وأمرتم مدفعيتكم أن تصوب نيرانها على فرساننا الهنادى فى مخافرنا الأمامية » .

و بعد أن ذكر إبراهيم هذه الأسباب قال :

« ولقد صبرت إلى الآن على هذا كله ولم أقابله بمثله ، لأننى كنت أحاول أن أقنع نفسى بأن هـذه الأعمال العدائية تغضب السلطان مولانا المعظم . فإذا كنتم سعادتكم تعزون سكوتى عنها إلى الخوف فإنكم مخطئون فى ظنكم ، إذ ليس لسكوتى إلا سبب واحد هو حرصى على احترام رغبات سمو والدى وسيدى المعظم . و إذا كنتم سعادتكم قد تلقيتم الأمر باستئناف القتال ، فما بالكم تنهجون هـذا النهج وتدسون الدسائس . هلموا إلى ميدان القتال ، ولكن هلموا إليه بصراحة ، وخوضوا غمرات الحرب كما يجب أن تخاض . ولا إخالكم قد نسيتم ما حدث منذ بضع سنين ، وستلقون رجالاً لا يعرف الخوف طريقه إلى قلوبهم ؛ أما الدسائس فإننا لا نطيق احتمالها إلى الأبد . فهل أحظى منكم بجواب صريح ؟ فإن فعلتم فسينقل ردكم إلىّ إذا رغبتم حامل هـذا الخطاب الأمير ألاى محمود بك[2] » .

واستقبل حافظ باشا الأميرالاى والبكباشى الذى كان يصحبه أحسن

(١) جبل الأكراد (العرب)

(٢) كدلفين وبرو جزء ١ ص ١٩٣

استقبال ، وأتحفهم بالهدايا وأخبرهم أنه سيرسل رده فى اليوم التالى . وكانت الروح السارية فى هذا الرد من أوله إلى آخره هى أن الخضوع لا يكون بالأقوال بل بالأفعال . ثم انتقل حافظ باشا من هذا المبدإ إلى قوله إنه لا يعترف بأن التهم التى يوجهها إليه إبراهيم قائمة على أساس صحيح ؛ وحاول أن يثبت أن الجنود المصرية لا الجنود الشاهانية هى المعتدية ، وجاء فى ختام هذا الخطاب ما يأتى :

« لقد أعطيت لنفسى الحرية فى كتابة هذه الرسالة الودية ، لتكون دليلاً على حسن نيتى ؛ وقد أرسلتها مع الأميرالاى حاذق بك ، و بصحبته الأميرالاى أحمد بك من ضباط الجيش الشاهانى المظفر . وعند ما تصلكم هذه الرسالة إن شاء الله سيتوقف العمل بما فيها على حكمتكم السامية »[1].

و بينما كان القائدان يتبادلان الرسائل على هذا النحو ، كان رسول يستحث الخطى إلى إبراهيم ، يحمل إليه رسالة من أبيه مؤرخة ٩ يونيه سنة ١٨٣٩ يقول فيها :

« تسلمت رسالتك التى تقول فيها إن العدو يواصل زحفه ، و إنه احتل الآن ستين قرية وراء عينتاب ، وإنه وزع السلاح على الأهالى وحرض العصاة على مهاجمة عَكّار[2] وسلب أموال حاكمها وقتله . وقد قلت بعد ذلك إنه ليس من الحكمة أن يسمح للأتراك بالسير على هذه الخطة ، وطلبت إلىّ أن أخبرك بما تفعل .

« إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول ، و إذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نقفه ، لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال ؛

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٩٧

(٢) بلد صغير واقع على بعد ٣٢ كيلو مترا من شرق طرابلس والذين هجموا عليه فى ذلك الوقت هم المتاولة . (المعرب)

وكلما صبرنا عليه رغبة منا فى عدم معارضة رغبات الدول الكبرى ، زاد عدونا إيغالا فى بلادنا وزادت الأمور حرجا . وتلك حال ترغمنا على العمل ؛ فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولما كان العدو هو المعتدى فإن الدول لن تلقى التبعة علينا .

« فنصيحتى إليك أن تبادر عند وصول رسالتى إلى يديك بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا فى أرضنا ، وأن لا تكتفى بإخراجهم منها ، بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله »[1] .

ووصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم فى غسق الليل ؛ فأراد أن يهاجم العدو عند مطلع فجر اليوم التالى . ورأى سليمان باشا (الكولونل سيف ساعد إبراهيم الأيمن ، الذى طالما أشرنا إليه فى هذا الكتاب) غير هذا الرأى ، وأصر على أن وجود الضباط البروسيين فى جيش حافظ باشا يحمله على الظن بأن مواقع العدو قوية محصنة ؛ وطلب الضابط الفرنسى أن يستكشفا بنفسهما تلك المواقع قبل الهجوم عليه . ولما كان من شيمة إبراهيم أن ينصاع دائماً إلى حكم العقل ، فقد قبل هذا الرأى عن رضا وطيب خاطر .

وفى صباح اليوم التالى اضطلع القائدان نفسهما بتلك المهمة الخطيرة ، مهمة استطلاع مواقع الجيش التركى . ومازالا يقتربان من خط النار حتى أصاب الرصاص حصان أحد جنودهما فقتله . وكانت نتيجة هذا الاستطلاع أن عرفا أن نصيبين التى اعتصم بها حافظ باشا أمنع من عقاب الجو ، وأن ليس فى مقدورهما أن يستوليا عليها عنوة[2] ، لأن فنون ملتكه وفنون ملباخ نصبا معسكر الأتراك

(١) فنترنيه فى كتابه السالف الذكر ص ٣٠٩ .
(٢) المصدر عينه ص ٣١٢ .

عند سفح التل الذى يجرى عنده نهر كرزين[١] ، وجعلا هذا النهر حائلا بين المصريين والجيش التركى . ولذلك اضطر المصريون أن ينسحبوا من مواقعهم ويهاجموا العدو من جهة أخرى . وأيقن إبراهيم وسليمان باشا أن الفضل فى اختيار هذا الموقع المنيع الذى اتخذه الجيش التركى لنفسه يرجع إلى مهارة الضباط البروسيين وخبرتهم الفنية ، ولكنهما قدرا أن الألمان لن يستطيعوا أن يتنبأوا بالحركة الجريئة التى سوف يقدمان عليها .

والحق أنهما لم يخطئا التقدير ، لكنهما حين أقدما على ما أقدما عليه عرضا أنفسهما لأشد الأخطار رغم أنهما بنيا خطتهما على نفسية البروسيين وعقلية الأتراك . وقد وصف تلك الخطة إيميه ڤنترنييه Aimé Vingtrinier صاحب سيرة سليمان باشا بقوله :

« وكانت فكرة سليمان وميضاً من العبقرية إذا أفلحت وأوهاماً من عقل مخبول إذا أخفقت . ولكنه كان مؤمناً بصوابها ، واستطاع أن يبث هذا الإيمان فى الجيش كله لا فرق بين قائده الأعلى وأصغر جندى فيه »[٢] .

وكانت الخطة التى نفذت بإشراف إبراهيم وعلى مسئوليته هى أن يترك الجيش المصرى المعسكر الذى كان يحتله وقتئذ ، ويسير مخترقاً قرية مزار[٣] ، وأن يتم ذلك بين طلوع الفجر وغسق الليل ؛ ثم يلتف حول جبل بيازار ويعود بعدئذ فيتجه نحو العدو موليا وجهه شطر الجنوب فى اتجاه قرية كرد قلعة[٤] ،

---

(١) هو نهير يصب فى الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى . وقد كتبه المؤلف وڤنترنييه كرسيم وكتبه فريد بك قرصيم ، ولكن الخرائط التى اطلعنا عليها وكذلك كدلڤين وزميله والرافعى بك يكتبونه كرزين . (المعرب)

(٢) المصدر عينه ص ٣١٤ .

(٣) تقع هذه القرية جنوبى نصيبين بغرب . (المعرب)

(٤) فى الجزء الأول من كتاب كدلڤين وبرو وفى كتاب الرافعى بك رسم واضح =

وكانت الفكرة التى بنيت عليها هذه الحركة كلها هى : أولا أن ڤون ملتكه عند ما يرى أن الجيش المصرى قد رفع معسكره لا يشك مطلقاً فى أن قواد هـذا الجيش لن يفعلوا ما كانوا ينوون أن يفعلوه ، وهو تعريض جناحهم للخطر ، وأنه سيمكنهم بذلك من أن ينفذوا الشطر الأول من خطتهم قبل أن يدرك حقيقتها . وثانياً أن ڤون ملتكه إذا ما أدرك حقيقة الموقف وأراد الانسحاب إلى مواقع خير من مواقعه الأولى ليهاجم منها المصريين قبـل أن يصلوا إلى أماكن آمنة ، لن يتمكن من التغلب على كبرياء القائد التركى ، بل إن هذا القائد سيتغلب على المنطق الألمانى الضعيف .

و يقال إنه لما فرض حافظ باشا رأيه على الضباط الألمان غضبوا أشد الغضب ورفعوا إليه استقالتهم ؛ فلما فعلوا ذلك قال لهم السر عسكر « إن الجندى لا يستقيل قبيل الموقعة » . وكان هـذا الالتجاء إلى المبادئ الخلقية العسكرية كافيا لحل المشكلة ، فلم ينسحب ڤون ملتكه بل أفرغ وسعه فى معالجة هذه الحال الطارئة ، فعدل خططه ونقل مدافعه التى أصبحت عديمة الفائدة ، لأن المصريين أبوا أن يقدموا أجسامهم طعاما لنيرانهـا ، ووضعها حيث يمكنه الاستفادة منها . وأيقن أن الموقعة الحاسمة ستبدأ عند مطلع فجر اليوم التالى ؛ وكان يخشى أن تكون نتيجتهـا وبالاً على الجيش العثمانى ، لأن إبراهيم خرج على القوانين الحربية ، فأبى أن يتبع البديهيات الأولى فى فن الحروب ، وخرق مبادئها الأولية . ولشد ما تألم

= لموقعة نصيبين ومواقف الجيوش المحاربة والأماكن الواردة هنا فليطلع عليه من شاء . ولم نعثر فى جميع المصادر التى اطلعنا عليها على اسم القرية التى يسميها ڤنترفيلد والمؤلف Kardikala ويسميها كدلقين وزميله Cordikala ، وقد راجعنا من أجل ذلك من المصادر التركية قاموس الأعلام لشمس الدين سامى بك ومعجم التاريخ والجغرافيا لعلى جواد بك والكتاب السنوى لولاية حلب وبعض الأطالس التركية عدا المصادر العربية الكثيرة ، واستعنا بمن نعرفهم من أفاضل الأتراك والسوريين . وأكبر ظننا أن الاسم الذى أثبتناه هنا هو الاسم الصحيح (المعرب)

ذلك العالم الخبير بفنون الحرب حين رأى أن عدوه قد أبى أن يعمل ما يجب عليه أن يعمله . ولا شك فى أنه كان يعتقد أن أمثال ماكماهون Mac Mahon وبازين Bazaine [1] ممن يتمسكون بالقواعد والأصول ، خير من رجال كإبراهيم أو سليمان باشا يضعون قواعدهم لأنفسهم .

وما أسفر صبح اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيه حتى بدأت المعركة بهجوم المصريين . وكان جل اعتماد الأتراك على فرسانهم لأنهم ظنوا أن طبيعة الأرض تحتم عليهم اتباع هـذه الخطة الحربية . وقد يكونون مصيبين فى ظنهم لأننا لا ندعى لأنفسنا تلك الخبرة بالفنون العسكرية التى تمكننا من أن نبدى رأيا فى هذا الموضوع . وكل الذى يعنينا هنا هو أن مشاة المصريين صدوا هجوم الفرسان العثمانيين ، فولى هؤلاء الفرسان الأدبار لا يلوى آخرهم على أولهم . وعندئذ وقع الاضطراب فى صفوف الجيش العثمانى كله ، فتضعضعت أركانه ولم تأت الساعة التاسعة حتى كان إبراهيم سيد الميدان غير المنازع .

وأقبل إبرهيم على خيمة حافظ باشا . وقد وصفها فنترنيه وصفاً لا نعتقد أنه كان جادا فيه ؛ لأنه قال « إنها كانت واسعة الأرجاء كأنها قصر مشيد ، مزخرفة كأنها حجرة استقبال لأحد الأباطرة العظام ، يبهر الرائى جلالها وعظمتها » [2] . يبدو على هذا القول كثير من المبالغة ، ولـكن الذى لا شك فيه أنه كان فى هذه الخيمة المزخرفة أريكة من الأرائك التركية المطعمة بالصدف ، البعيدة عن الذوق والجمال الفنى بعدها عن النفع ، ثمنها عظيم ولـكن الجالس عليها فى عناء معن . وقد ترك بعضهم على هذه الأريكة أوسمة حافظ باشا ورسائله .

(١) قائدان من قواد الحرب الفرنسية الألمانية (١٨٧٠ — ١٨٧١) هزمهما الجيش الألمانى فى هذه الحرب . (المعرب)

(٢) فنترنيه فى كتابه السالف الذكر ص ٣٣٠ .

فلما دخل إبراهيم هذا المسكن المؤقت المترف ، الذى لا نشك فى أن ثون ملتكه كان بعده مخالفا للسطرين الثالث والرابع من الفقرة التاسعة من القسم الرابع عشر من المادة الثانية عشرة بعد المائتين من القواعد الخاصة بنظام الجيوش فى الميدان ، كان يكسوه العثير ويتصبب من جبينه العرق . ولما رأى هذه الأبهة الكاذبة تبسم ابتسامة ملؤها السخرية والازدراء ، ومشى من فوره إلى الأريكة غير حافل بالأوسمة التى لم تكن لها قيمة فى نظره ، لأنه أكبر من أن يهتم بهذه الصغائر . ولكن الوثائق المتروكة وما قد يكون فيها من أمور ذات بال استرعت نظره ، فوقف يفحصها ؛ وإذا به يجد فيها فرمانا يعين حافظا باشا والياً على مصر بدل والده[1] . فأمر أن يعنى بفحص الأوراق الباقية عساه أن يجد فيها من المعلومات ما له قيمة حربية . وبعد أن وكل هذه الأمور إلى من يعنى بها ، أرسل الفرسان المصريين لمطاردة الأتراك الفارين ، وأعد العدة لمواصلة الزحف على مرعش وملطيه وديار بكر .

ويقول لنا القنصل اليونانى العام فى تقريره المرسل إلى أثينا إن إبراهيم كتب إلى محمد على من خيمة حافظ باشا نفسه ينبئه بهزيمة الأتراك ، وأن الموقعة لم تدم أكثر من ساعتين ، وأن البشير وصل بهذا النبأ السار إلى القاهرة فى اليوم الثالث من شهر يوليه[2] ؛ ومنها أرسل بالبرق إلى الإسكندرية حيث كان الباشا مقيما فى ذلك الوقت[3] . وجاء فى تقرير قنصلى آخر أن مدافع الجيش

(١) مصر فى القرن التاسع عشر تأليف إدورد جون طبعه فى باريس بوازار ص ٤٥٤ ؛ والكتاب مترجم إلى العربية بقلم الأستاذ محمد مسعود . (المعرب)

(٢) فى الأصل الإنجليزى ٣ يونيه ولقد استنتجنا من أول الأمر أنه ٣ يوليه ثم رجعنا إلى المصدر الذى اعتمد عليه المؤلف وهو كتاب « النزاع بين تركيا ومصر » فوجدنا تسزا يقول بصريح العبارة إن الأخبار وصلت إلى الاسكندرية من القاهرة بطريق البرق فى ٣ يوليه ثم تأيد النبأ فى المساء بخطاب جاء بالبريد . (المعرب)

(٣) پوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٧٠ .

لم تطاق أكثر من ساعة ونصف ساعة ، وأن الأتراك زلزلت أقدامهم فجأة ، فطارت قلوبهم وولوا مدبرين ، وأنهم خسروا خمسة آلاف قتيل ونحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف أسير ، أما عدد الجرحى فلم يرد له ذكر فى هذا التقرير[١] .

ولم يعش السلطان محمود حتى يعرف نتيجة مغامرته العظيمة ضد أعظم أتباعه وأشدهم بطشا ، بل وافته المنية بعد يومين من واقعة نصيبين ، وقبل أن يصل نبأ هذه الطامة التى حلت بالجيش التركى إلى الآستانة . ويقول الفيكونت بلسنبى فى موته : « لا شك فى أن العلة كانت قد نشرت جناحيها عليه منذ شهور ، وأنه لم يحس بوطأتها فظل يعمل كل ما من شأنه أن يعجل يوم حمامه » .

وماذا كانت علة السلطان يا ترى ؟ لقد اختلف الأطباء فى تشخيص مرض عليلهم الكبير ، فأما الطبيب الإنجليزى الدكتور ملجن Dr Milligen الذى عرض عليه فقال إن محمودا قضى نحبه بسبب اضطراب فى المخ ناتج من إدمان المسكرات ؛ وقال الدكتور نونر Dr Neuner الذى كان يعالجه إنه مات بذات الصدر ، ووافق الحكيم باشى التركى كبير أطباء القصر على رأى الطبيب البريطانى »[٢] .

ويذكرنا هذا الجدل بالجدل الذى ثار منذ أربعين عاما أو نحوها حول موت القيصر فردريك الثالث Kaiser Frederick III ؛ والفرق بين الحالين أنه لم يوجد وقتئذ لسوء الحظ إلى جانب السر مرل مكنزى Sir morell Mackenzie طبيب تركى يفصل بين الآراء المختلفة . والآن فلنعد إلى محمود لنقول إننا صورناه فى صورة رجل جبان متردد لا يثبت على حال . ولربما كنا قد ظلمناه حين صورناه بهذه الصورة ، وحين نقلنا رأى الدكتور ملجن فى مرضه ؛ ولذلك وجب علينا

(١) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٧٢ .

(٢) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٣٠٦ وما بعدها

أن نبادر إلى القول بأن السفير البريطانى فى بلاطه قد كتب فيه يقول :

« يدهش الإنسان من شدة الحزن عليه ومن كثرة من أسفوا لموته . ولما كان الناس لا يتملقون الرجل إذا مات وأصبحوا لا يرجون ثوابه أو يخافون عقابه ، فإننا لا نخطئ إذا اعتقدنا أن الرجل الذى حزن عليه الناس هذا الحزن بعد مماته ، كان فى حياته موضع إجلالهم »[1] .

وأراد الله أن لا يأسى لهزيمة الأتراك المنكرة قلب آخر هو قلب السيدة هستر لوسى استانهوب Hester Lucy Stanhope ، فقد وافاها القدر بينما كان الجيشان يتحفزان للهجوم . وأكبر ظننا أنها لو لم تعاجلها منيتها لأوقفت إنجلترا موقف العداء الشديد من أغراض محمد على . وإن كانت حكومات أوربا لم تكن فى حاجة إلى جرأة امرأة باسلة لتحفزهن للضغط على الباشا ، إلا فرنسا التى وقفت منه موقف الصديق ، حتى قال بعض المؤرخين إن باريس أرادت أن تستغل هذه الصداقة . وسواء أكان ذلك أم لم يكن ، فإن وزارة الخارجية الفرنسية ما كادت تسمع بأن موقعة نصيبين قد أبادت قوة الأتراك الحربية ، حتى أرسلت من فورها رسولا هو الكبتن كيبه Captain Caillé إلى المعسكر المصرى . ولم يقف إبراهيم مكتوف اليدين بعد أن أباد جيش حافظ باشا ؛ وذلك أنه عثر على خطة العدو الحربيـة فوجدها مقسمة تسعة أقسام ، جاء فى القسم السابع منها بصريح العبارة أن الاستيلاء على مصر يجب أن يكون الغرض الثانى من أغراض الأتراك . فلما أيقن إبراهيم أن السلطان كان ينوى أن يجعل هذه الحرب ساحقة ماحقة ، زال ما عسى أن يكون لديه من أثر للتردد فى مواصلة

(١) تاريخ الثورة المصرية تأليف ا . ا . پيتن طبعة تربنر وشركائه بلندن سنة ١٨٦٣ ص ١٣٥ .

الزحف . وكان من أول أعماله أن استرد عينتاب ؛ وكان مفتى هـذه البلدة من أولئك الزعماء المسلمين الذين اتهموا إبراهيم بأنه رافضى ، وأذاعوا هـذه التهمة فى طول البلاد وعرضها ، وجاهر بانضمامه إلى الأتراك . فلما هزمت الجيوش الشاهانية أراد أن يتظاهر بالانتصار للمصريين ؛ ولكن عيون إبراهيم لم تكن تخفى عليهم خافية ، فلقيت هذه الخديعة ما تستحقه من العقاب . ولما حضر بين يديه قال له إبراهيم : « لقـد اتهمتنى بالزندقة ونسيت أنى أنا الذى فتحت الكعبة للمسلمين الصادقين ، حتى صار فى استطاعة أية امرأة أن تحج بيت الله بمفردها . ألا ترى أنك قد ظلمتنى ظلماً بيناً حين رميتنى بالزندقة مع علمك أنى أنا حامى الحرمين الشريفين ؟ إنك لخنزير تسعى إلى إيقاظ الفتنة والعمل على خراب بلاد الإسلام »[1] ، ولم يقل لنا بعـد ذلك كدلقين وبرو اللذان يقصان هذه القصة هل عوقب المفتى أو عفى عنه ؟

ولم تكن سرعة إبراهيم فى زحفه لتمنع الكبتن كيبه رسول الحكومة الفرنسية من أن يلحق به بعد زمن قصير . وكان هـذا الضابط قد وصل إلى الإسكندرية قبل أن تبلغها أخبار واقعة نصيبين ، ولكن بعد أن أيقن كل الناس أن التحام الجيشين أصبح لا مندوحة عنه . وكان يحمل معه رسائل من رئيس الوزارة الفرنسية المارشال سولت Marshal Soult ، نص فيها صراحة على أن الدول الخمس قد قررت أن تتـدخل فى النزاع ، وأن تقف الأعمال الحربية إذا كانت قد بدأت بالفعل[2] . وقد حصل هذا الرسول على خطاب من محمد على لإبراهيم أسرع به إلى بلاد الشام ؛ فلحق القائد المظفر فى ٢٩ يونيـه وقت

(١) كدلقين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ٢٨١ .
(٢) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٦٣ .

أن كان الجيش يحط رحاله ليقضى الليلة عند أنج صو .

ورحب إبراهيم بكييه وأكرم مثواه ، لأن الكرم غريزة متأصلة فى نفس كل شرقى . وضاعف من إكرام إبراهيم له وتحفيه به ، أن كييه أكد له أنه قد سافر ليلاً ونهارًا ، لكى يكون أول ممثل أجنبى يقدم إليه التهانى ؛ وبقى برهة من الزمن لا يقول فى خلالها لإبراهيم شيئاً يثبط من عزيمته ، ويقلل من حماسه ، حتى إذا ما انتقل الحديث إلى حركات الأساطيل الأوربية وسئل كييه عنها قال : « إنى أحمل إليك خطابا من أبيك » . وسر إبراهيم حين سمع بهذا النبأ ، ففض خاتم الرسالة من فوره . وما كان أشد أسفه إذ قرأ فيها أمرا من أبيه بوقف تقدم الجنود . فلما تبين ذلك له قال غاضباً : « هذا محال ؛ لقد كتب هذا الخطاب قبل أن ننال النصر فى نصيبين . إن هذه الواقعة وما سبقها من تحرش بنا يبطلان هذه الأوامر ؛ ولذلك لن أعمل بها وسأتحمل تبعة عصيانها » .

ويؤسفنا أننا لم نجد خطاب محمد على ؛ ولكننا نستطيع أن نتبين روح هذا الخطاب بوجه عام من جواب إبراهيم عنه ، فقد كتب هذا الرد فى صورة الغائب وبدأه بقوله :

« هذا ما يعرضه عليكم خادمكم الخاضع :

« لقد علم ما أصدره إليه ولىّ نعمته ، أى سموكم ، من الأوامر التى احتواها هذا الخطاب المؤرخ ١٦ يونيه . وقد حمل إليه هذا الخطاب المسيو كييه ياور رئيس مجلس الوزراء الفرنسى سعادة المارشال سولت المعظم » .

وبعد أن شرح بالتفصيل تحرش حافظ باشا به قال إن الجيش بعد موقعة نصيبين لا يسعه إلا أن يواصل الزحف أو يتقهقر ، لأنه لا يستطيع أن يجد المؤن حيث هو ثم قال :

« وهل سمع أحد من الناس أن جيشاً ظافرا يتقهقر ؟ أما إذا واصل الجيش الزحف فإنه يجد الأرزاق مكفولة . وما دام التقهقر أمراً لا يمكن التفكير فيه فقد أصبحت مرعش و بيره جك مقصد قوات سموكم ، لأننا نستطيع أن نجد فيهما حاجتنا ؛ ولهذه الأسباب فنحن مضطرون إلى الزحف على أورفه ومرعش ، وأرجو أن يترك للسلطة المختصة أن تقرر هى حركات الجيش المستقبلة »[1] .

و يقول فنترنيبه إن إبراهيم لما قرأ رسالة محمد على غضب أشد الغضب « ولم يرع حرمة أبيه ولا حرمة فرنسا ولا حرمة الرسول »[2] ، لكن مؤرخ سليمان باشا لم يستق معلوماته من أصولها ، بل أخذ معظم ما كتب عن كتاب كدلفين و برو المسمى « سنتان من تاريخ المشرق » والذى نشر فى عام ١٨٤٠ ونقلنا عنه كثيرا فى هذا الكتاب . وهذان المؤلفان المعاصران لا يقولان إن إبراهيم « لم يرع حرمة أبيه ولا حرمة فرنسا ولا حرمة الرسول » بل كل ما يؤكدانه هو الفقرة التى نقلناها . على أننا لا نشك فى أنه قد تأثر غاية التأثر ، لأن خطابه إلى محمد على يوضح ذلك كل الوضوح . غير أن حبه لأبيه وإجلاله إياه ، كانا متأصلين فى طبعه ، متمكنين من نفسه ، بدرجة تجعلنا لا نصدق أنه حتى فى ساعة غضبه وألمه لم يحترم أباه .

قد نسلم بأنه سب فرنسا وكپتن كبيه ، بل نذهب إلى أبعد من ذلك إذ نميل إلى الاعتقاد بأنه قد صب جام غضبه على فرنسا وأفرغ عليها كل ما فى

(١) العبارة فى الأصل الإنجليزى مضطربة وقد ذكرت فيها متش بدل مرعش ولذلك رجعنا إلى الأصل التركى وإلى الترجمة الفرنسية له فى كتاب كدلفين وبرو وقد ذكرت فيه بيله جك بدل بيره جك مع أن الأولى قرب بروصة ولاشأن لها بهذه المواقع . أما الثانية التى تسمى أحيانا « البيرة » فواقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات وهى المقصودة هنا من غير شك .

(٢) فنترنيبه فى كتابه السالف الذكر ص ٣١٠ .

نفسه من ألم . وحاول كيبه أن يجادل إبراهيم ليقنعه ، فأكد له معارضة أوربا فى قيام الحرب ، وأشار إلى أوامر محمد على ، وإلى تدخل الدول العظمى الذى لا بد منه . ولكن القائد أبى أن يستمع إلى هذه الحجج ، وأجابه بقوله :

« لقد درستَ التاريخ أليس كذلك ؟ فهل سمعت مرة أن قائداً منتصراً وقف عن مواصلة زحفه ؟ إن كنت أنت قد سمعت بذلك فأنا لم أسمع به »

ولكن ذلك لم يَفت فى عضد كيبه ، بل أصر على أن تُغَيِّر القوتان الزاحفتان على ملطية وقونية اتجاههما ، وأن لا تعبرا جبال طوروس . لكن إبراهيم رفض هذا الاقتراح ، بحجة أنه لابد له من أن يمنع الأتراك من إعداد جيش جديد لغزو الأملاك المصرية ، وأن يضمن لجنوده مؤونتهم . ولكن الفرنسى رغم هذا كله لم يتحول عن موقفه ؛ ولما ألح على إبراهيم قال له مغضباً :

« إنى على استعداد لأن أتخلى لك عن قيادة جيشى وأسلمك ما معى من النقود لأنى لست فى حاجة إلى الأراضى ؛ وإذا استطعت بعد ذلك أن تحتفظ بالشام وتمون جنودى فذلك ما أبغى . إنى لن أترك بلاد الشام ، ولابد لى من أن أطعم رجالى » .

ودامت هذه المقابلة خمس ساعات . وإذا كان إبراهيم قبل ختامها قد أغلظ فى القول لهذا الرسول الملحف ، فلا لوم عليه فى ذلك ؛ لأنك قل أن تجد من القواد من يضيع من وقته خمس ساعات يستمع فيها رسالة هو غير راض عنها . وبعد ذلك كله لم ييأس كيبه من بلوغ غرضه ، فاستأذن على إبراهيم فى مطلع فجر اليوم التالى بينما كان الجنود يقتلعون خيامهم . وكانت خيمة إبراهيم قد جردت مما فيها ، ووقف حرسه وحصانه فى انتظاره ؛ فقابل الرسول الفرنسى مقابلة فاترة . ومع أن الخيمة كانت خالية من الكراسى والمقاعد ، فقد وقف كيبه على

الأرض وأطلق للسانه العنان ، حتى قال له إبراهيم آخر الأمر « لست أريد أن أدعوك إلى الخروج ، ولكننى أقول لك إنك إذا ظللت تتحدث إلىَّ عشر سنين طويلة فلن تستطيع أن تحولنى عن رأيى » . وهنا قدر إبراهيم فأخطأ التقدير ، لأنه بقوله هـذا كان يحكم على المستقبل . لقد كان صائب المنطق طالما كان يتكلم عن الماضى و يصرف أمور الزمن الحاضر ، لكنه عندما تخطى الحاضر إلى المستقبل لم يأمن الزلل . ولم يخف ذلك على كيبه بل عرفه ودبر فى ظلام الليل تدبيراً جديداً ، إذ اعتزم أن تكون رغبات محمد على هى المحور الذى يَدُور عليه كل حديثه ، وأن لا يذكر شيئاً عن الدول إلا النزر اليسير .

ولم يكن فى مقدور إبراهيم أن يتغلب على هذه الخطة ، لأن حبه لأبيه لم يكن حبًّا عاديا ؛ و إنما كان شغفاً بل تيماً بل ديناً ، ولم يكن يستطيع أن يسلك سبيلا قد لا يرضى عنها محمد على ، وما كان هذا لخوف منه بل لحب فيه . ولهذا انحلت عرى مقاومته وهو واقف على قدميه وحصانه المحبوب يبحث الأرض برجله على قيد بضع خطوات منه . وعندئذ أجاب كيبه إلى ما طلب ، ورضى أن لا يعبر جبال طوروس ، وأن تقتصر أعماله الحربيـة على احتلال مرعش وأورفه ، وهما نقطتان لا غنى عنهما لضمان تموين جيشه . ولم يتحرك من مكانه حتى أمر أن يرسل رسول ليلحق طلائع جنوده ويقف زحفهم[1] . فعل ذلك إبراهيم وهو آسف كل الأسف على ما فعل . فعله فى ساعة نصره المبين لأنه لم يشأ أن يسبب المتاعب لأبيه .

---

(١) كيدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ٢٨٢ .